(شيخُ الإسلام الإمامُ النووي)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيّدنا محمَّداً عبدُه ورسوله، وصفيه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، هدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدِّين كلِّه ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون، ولو كره من كره، اللَّهم صلِّ على سيّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد:

عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله العظيم، وأحثكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

يقول الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:90].

وقال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف:111].

أيها الإخوة:

أخبارُ العلماء العاملين، والحكماء الصالحين، والمجاهدين المتقين تغرسُ الفضائلَ في النفوس، وتدفعها إلى تحمُّل الشدائد والمكارِه في سبيل الغايات النبيلة والمقاصد الجليلة، وترفعها فوق شهوات الماء والطين لتصل بها عليين.

ومن هنا قال بعض العلماء: الحكاياتُ جندٌ من جنود الله تعالى، يثبّت بها قلوب أوليائه.

نحن في الخطبة الثانية عشرة من سلسلة (أعلام من الشام) التي أحدّثكم في كل خطبةٍ منها عن واحدٍ من أعلام هذا البلد التقيّ المرابط المبارك الكريم الصابر، عن علَم وُلِدَ هنا، أو مرَّ من هنا فعاش حقبةً من الزمن، أو توفاه الله في هذه البلدة.

والأعلام المختارون من بعد عصر الصحابة وحتى نهاية القرن الثالث عشر للهجرة.

كنت قد تحدثتُ إليكم عن السلطان الشهيد نور الدين زنكي، وعن السيدة ستِّ الشام، وعن مؤرّخِ دمشقَ ومحدثِها الإمامِ الحافظِ ابنِ عساكر، وعن سلطانِ العلماء العزِّ بن عبد السلام، وعن الإمامين الأوزاعي وابن كثير، وعن الحافظين الذهبي والمزّي، وعن الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي، وعن الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز في خطبتين، وعنوان خطبة اليوم:

(شيخُ الإسلامِ الإمامُ النوويُّ)

هو الإمامُ الحافظُ أبو زكريا يحيى بن شرف النووي ثم الدمشقي الشافعي، شيخُ المذهب، وكبيرُ الفقهاء في زمانه.

ولِد سنة إحدى وثلاثين وستمائة في نوى (قرية من قرى حوران) من أبوَين صالحين، كان أبوه دكّانياً بنوى، معروفاً بالصلاح والخير، كافأه الله على صلاحه بنجابة ولده.

قال الشيخ ياسين بن يوسف المرّاكشي: رأيتُ النوويَّ وهو ابنُ عشر سنين بنوى، والصبيان يُكرِهونَه على اللعب معهم، وهو يَهرب منهم، ويبكي لإكراههم، ويقرأُ القرآن في تلك الحال، قال: فوقعَ في قلبي محبتُه، وكان قد جعلَه أبوه في دكَّان، فجعل لا يشتغلُ بالبيع والشراء عن القرآن، قال: فأتيت معلِّمَه فوصَّيتُه به، وقلتُ له: إنه يُرجى أن يكون أعلمَ أهلِ زمانِه وأزهدَهم، وينتفع الناس به. فقال لي: أمُنجِّمٌ أنت؟ فقلت: لا، وإنما أنطقني الله بذلك. قال: فذَكَرَ المعلِّمُ ذلك لوالدِه، فازداد حرصُه عليه إلى أن ختم القرآن، وقد ناهَزَ الحُلُم.

ولما بلغ النووي التاسعة عشر من عمُرِه قدمَ به والدُه دمشقَ ليُتابع تحصيلَه، فسكنَ المدرسةَ الرَّواحية، وهي ملاصِقةٌ للمسجد الأموي من جهة الشرق، واستمرَّ بها حتى مات.

أقام الشيخُ بدمشقَ نحواً من ثمانٍ وعشرين سنةً، يتعلَّمُ ويُعلِّم، ويأمرُ بالمعروف وينهى عن المنكر، يعبدُ الله ويُحسِن إلى خلقِهِ.

ولقد رأيتُ في الإمام النووي ثلاثةَ أمورٍ أَورَثَتْهُ الخيرَ، وأنا داعٍ نفسي وإياكم للتمسُّكِ بها، شِيباً وشَباباً، رجالاً ونساءً، وهذه الثلاثة هي الفائدة العملية من الخطبة:

الجِدُّ في التعلُّم والتعليم، والتحرّي في أكل الحلال، وكثرةُ العبادةِ والأذكار.

أمَّا الجِدُّ في التعلُّمِ والتعليم:

فقد مَرَّ أن الإمامَ النوويَّ –رحمه الله تعالى– حفظ القرآن الكريم وقد ناهزَ الحُلُمَ، وحفظَ بعدَه كتاب "التنبيه" وهو كتابٌ جليلٌ في الفقهِ الشافعي، في قريبٍ من ثلاثمائة صحيفة، وحفظ في النحو مقدمةَ الجرجاني، وغيرَها.

وكان يقرأ كلَّ يومٍ اثني عشرَ درساً على الشيوخ، ما بين شرحٍ وتصحيحٍ: درسين في "الوسيط"، وثالثاً في "المهَذَّب"، ودرساً في "الجمع بين الصحيحين"، وخامساً في "صحيح مسلم"، ودرساً في "اللُّمَع" لابن جِنّي في النحو، ودرساً في "إصلاح المنطق" لابن السِّكّيت في اللغة، ودرساً في التصريف، ودرساً في أصول الفقه، ودرساً في أسماء الرجال، ودرساً في أصول الدين.

قال النوويُّ: وخطرَ ليَ الاشتغالُ بعلمِ الطبِّ، فاشتريتُ "القانون"، وعزمْتُ على الاشتغالِ فيه، لكنِّي عُدتُ لِمَا كنتُ عليه أولاً.

قال الذهبي في "سِيَر أعلام النبلاء": ضُرِبَ به المثلُ في إكبابِهِ على طلب العلم ليلاً ونهاراً، وهَجْرِهِ النومَ إلا عن غلَبةٍ، وضبطِ أوقاتِهِ بلزوم الدرسِ أو الكتابة أو المطالعة أو التردُّدِ إلى الشيوخ.

هذا عن تَعَلُّمِه، **أما تعليمُهُ العلمَ** فقد أمضى الشيخُ حياتَهُ بعد سِنِّ الثلاثين يُفيدُ طلابَ العلم وقاصديهِ تدريساً وتأليفاً حتى عَمَّ النفعُ بعلمِهِ وتصانيفِهِ، وانتشرَ في الأقطار ذكرُها، وأَكَبَّ الناسُ على تحصيلِها، ولعلَّ بيتاً من بُيوتِ المسلمين منذ وفاتِه وإلى اليوم لا يخلو من كتابٍ من كُتُب الإمام النووي.

فمَنْ منكم لم يقرأْ في كتاب "رياض الصالحين" ، ومن منكم لم يسمعْ بكتابه "الأذكار"، وقد كان أهلُ الشام يقولون: (بِعِ الدارَ واشترِ الأذكار) ، ومَن مِنَّا لم يحفظِ الأربعين النووية أو بعضَها..

ألَّف –رحمه الله– كتاب "المجموع" في الفقه، ومات عنه ولم يُتِمَّهُ. قال عنه العلماء: لو كَمُلَ لم يكُنْ له نظيرٌ في بابه، وله شرحٌ لصحيح مسلم، وشرحٌ لصحيح البخاريّ، أيضاً لم يُتِمَّهُ، وله "التِّبيان في آدابِ حملة القرآن" وغيرُها كثيرٌ في الفقه والحديث واللغة والتراجم، زادتْ على الخمسين.

وكَتَبَ اللهُ لكُتبِه القَبولَ، فكان الطلابُ وغيرُهم يحفظونها في مدارسهم ومساجدهم وحلقات العلمِ والتربيةِ، فقد حفظ كتابَهُ "المنهاج" خلائقُ، وكذا يحفظُ "رياض الصالحين" اليوم خلائقُ، وحَدِّثْ عن عدد الحافظين والدارسين للأربعين النووية ما شئتَ فلستَ بمُبالِغ.

كتَبَ الإمامُ النوويُّ بخطِّهِ يقول:

أموتُ ويبقى كلُّ ما قد كتبتُهُ فيا ليتَ مَن يَقرأ كتابي دعا لِيَا

لعلَّ إلهي أنْ يَمُنَّ بلُطفِهِ ويَرحَمَ تقصيري وسوءَ فِعالِيا

قال العلماءُ: سمعَ منه خَلقٌ من العلماء والحُفَّاظ والصدورِ والرؤساء، وتخرَّج به خلقٌ كثيرٌ من الآفاق، وسار علمُهُ وفتاواه في البلدان.

هذا عن الأمرِ الأولِ (الجِدُّ في التعلُّم والتعليم)

أما الثاني: التحَرّي في أكل الحلال:

فاعلموا -أيها الإخوة- أنَّ مَن سَقَى نبتَهُ ماءً طيِّبَاً خرَجَ الثمرُ حُلواً نضِراً، ومَن سقاهُ ماءً آسِناً خرَج مُرَّاً نكِداً.

علِمَ النوويُّ أنَّ اللهَ طَيِّبٌ لا يقبَلُ إلا طيِّباً، وأنَّ مَن أطابَ مَطعَمَهُ استُجيبَتْ دعوتُهُ، فكان يتَحرَّى -ما استطاعَ- الحلالَ الطيِّبَ في مَطعمِه ومَشرَبِه ومَلبَسِه، حتى صار مَضْرِبَ المثلِ في الورعِ والتحرّي والزهادةِ، وربما حَرَمَ نفسَهُ الطيباتِ مخافةَ أنْ تدخُلَ في الشُّبهات.

فقد ذكروا أنه لم يكنْ يأخذُ من حقوقِهِ في الأوقافِ شيئاً، مُكتَفياً بالسكن في المدرسة الرواحية، ومع ما أُسنِد إليه من وظائفَ علميةٍ، وما ترَأَّسَ من مشيخةٍ لدورِ الحديث، غير أنهُ لم يأخذْ من مُخصَّصاتها الماليةِ شيئاً، وكان يجمعُ ذلك عند الناظر، ويشتري به كُتباً وأشياء يوقِفُها لتلك الجهات.

وكان -إلى ذلك- يتحرَّى في قَبول الهدايا إلَّا ممَّن علِمَ طِيبَ مَطعَمِه، فكان لا يقبَلُ مِن أحدٍ شيئاً إلا إنْ تَحَقَّقَ دينَهُ ومعرفتَهُ.

وربما أهدَوا إليه فاكهةَ دمشقَ، فلم يأكلْ منها، مخافةَ أن تكونَ مِن أموالِ الأوقاف ويقول: (دمشقُ كثيرةُ الأوقافِ والأملاك لمن هو تحت الحَجْرِ شرعاً، ولا يجوز التصرُّفُ في ذلك إلا على وجهِ الغِبطةِ والمصلحةِ).

وهذا عن التحرّي في أكل الحلال.

أما الأمر الثالثُ الأخيرُ وهو كثرةُ العبادةِ والأذكار:

فقد أجمعَ مُتَرجموهُ على وصفِهِ بغايةِ التعبُّدِ والخشوع –رضي الله تعالى عنه– ، ذكر أبو عبد الله محمد بن أبي الفتح البعلي الحنبلي، قال: كنت ليلةً في أواخِرِ الليلِ بجامع دمشقَ، والشيخُ –النووي– واقفٌ يُصلّي إلى ساريةٍ في ظُلمَةٍ، وهو يُرَدِّدُ قولَه تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ [الصافات: 24] مِراراً، بِحُزنٍ وخشوعٍ، حتى حصلَ عندي من ذلك أمرٌ عظيم.

وأحبُّ أن أقرأَ عليكم طرَفاً مما أَورَدَهُ في مقدمة كتابه الشهير "رياض الصالحين" قال:

(أَما بعدُ، فقد قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: 56، 57] وَهَذا تَصْريحٌ بِأَنَّهُمْ خُلِقوا لِلعِبَادَةِ، فَحَقَّ عَلَيْهِمُ الاعْتِنَاءُ بِمَا خُلِقُوا لَهُ، وَالإعْرَاضُ عَنْ حُظُوظِ الدُّنيَا بالزَّهَادَةِ، فَإِنَّهَا دَارُ نَفَادٍ لاَ مَحَلُّ إِخْلاَدٍ، وَمَرْكَبُ عُبُورٍ لاَ مَنْزِلُ حُبُورٍ، ومَشْرَعُ انْفِصَامٍ لاَ مَوْطِنُ دَوَامٍ، فلِهذا كَانَ الأَيْقَاظُ مِنْ أَهْلِهَا هُمُ الْعُبَّادُ، وَأَعْقَلُ النَّاسِ فيهَا هُمُ الزُّهَّادُ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: 24]

فإذا كَانَ حالُها ما وصَفْتُهُ، وحالُنَا وَمَا خُلِقْنَا لَهُ مَا قَدَّمْتُهُ؛ فَحَقٌّ عَلَى الْمُكلَّفِ أَنْ يَذْهَبَ بنفسِهِ مَذْهَبَ الأَخْيارِ، وَيَسلُكَ مَسْلَكَ أُولي النُّهَى وَالأَبْصَارِ، وَيَتَأَهَّبَ لِمَا أشْرَتُ إليهِ، وَيَهْتَمَّ لِمَا نَبَّهتُ عليهِ. وأَصْوَبُ طريقٍ لهُ في ذَلِكَ، وَأَرشَدُ مَا يَسْلُكُهُ مِنَ المسَالِكِ، التَّأَدُّبُ بِمَا صَحَّ عَنْ نَبِيِّنَا سَيِّدِ الأَوَّلينَ والآخرينَ، وَأَكْرَمِ السَّابقينَ واللَّاحِقينَ، صَلَواتُ اللهِ وسَلامُهُ عَلَيهِ وَعَلى سَائِرِ النَّبيِّينَ).

أيها الإخوة:

بهذه الثلاثة –والله أعلم– نالَ الإمامُ النوويُّ الحظوةَ والرِّفعَةَ: الجِدِّ في التعلُّم والتعليمِ، والتحرّي في أكلِ الحلال، وكثرةِ العبادة والأذكار. وهي دعوةٌ لكلٍّ منَّا أن يلزَمَها في عُسرِهِ ويُسرِهِ، وفرَحِه وترَحِه.

زارَ الإمامُ النوويُّ بيتَ المقدِسِ قُبيلَ وفاتهِ بقليلٍ، وأعادَ ما عندَه من كتُبٍ مُستعارةٍ ثم عادَ إلى نوى، فمرضَ عند والدِهِ أياماً، ثم حضرتْهُ الوفاةُ، وانتقلَ إلى جِوارِ ربِّهِ سنة ستٍّ وسبعين وستمائة، وله من العمُر خمسٌ وأربعون سنةً، ودُفِنَ في بلدتِه نوى، وقبرُهُ بها ظاهِرٌ يُزارُ.

سُمِعَ منه قبلَ وفاتِه، ووُجِدَت على بعض كُتُبِه أبياتٌ يقول فيها:

بشائرُ قلبي في قدومي عليهِمُ ... ويَا لسُروري يومَ سَيري إليهمُ

ولا في رحلتي يصفُو مقامي وحبَّذا ... مقامٌ به حَطُّ الرحال لديهمُ

ولا زادَ لي إلا يقيني بأنهمْ ... لهمْ كَرَمٌ يُغني الوفودَ عليهمُ

رحم اللهُ الشيخَ الإمامَ النوويَّ، وجعلنا وذرارينا على نهجِهِ وسيرِهِ.

والحمد لله رب العالمين